

مصطفى عبد الله

مكاشفات... ما بعد الرحيل



منشورات



اسم المؤلف : مصطفى عبد الله
عنوان الكتاب : مكاشفات... مابعد الرحيل!
السناتور : المدى
الطبعة الأولى : ١٩٩٩
الحقوق محفوظة

Author : Mustapha Abdulla
Title : Illuminations after Departure
Al- Mada : Publishing Company
First Edition 1999
Copyright © Al-Mada

دار مآل للثقافة والنشر

سوريا - دمشق صندوق بريد : ٨٢٧٢ أو ٧٣٦٦
تلفون : ٢٧٧٢٠١٩ - ٢٧٧٦٨٦٤ - فاكس : ٢٧٧٣٩٩٢
بيروت - لبنان صندوق بريد : ٣١٨١ - ١١ فاكس : ٤٢٦٢٥٢ - ٩٦١١

Al Mada : Publishing Company F.K.A.
Nicosia - Cyprus , P.O.Box . : 7025
Damascus - Syria , P.O.Box . : 8272 or 7366 , Tel: 2776864 , Fax: 2773992
P.O. Box : 11 - 3181 , Beirut - Lebanon, Fax : 9611- 426252

All rights reserved. No parts of this publication may be reproduced, stored in a retrieval system , or transmitted in any form or by any means , electronic, mechanical, photocopying, recording or otherwise, without the prior permission, in writing, of the publisher.

مصطفى عبدالله

مكاشفات...

ما بعد

الرحييل!

الشعر بين الهموم اليومية وخارطة الروح...!

د. مجيد الراضي

حين وُضعتُ أمام مهمة اختيار مجموعة من أشعار الراحل مصطفى عبد الله لتطبع في كتاب شعرت بشيء من التردد في داخلي . فالمهمة صعبة من وجوه عديدة ، اولها ، إنني لا اريد أن اظلم الشاعر ، فكل اختيار هو تعبير عن ذوق محدد وثقافة معينة وموقف متميز من الأدب عامة والشعر خاصة . ويزداد الأمر حرجاً أن الشاعر لم تطبع له مجاميع شعرية سابقاً ، ولم يأخذ حقه من النشر كاملاً، ولم يطلع جمهور القراء الواسع على فنه . كما إنني لم أتعرف عليه إلا بعد موته المبكر في منتخبات من شعره نشرتها مجلة ((الثقافة الجديدة)) العراقية ، وحتى الكتيب الموسوم بـ ((الأجنبي الجميل)) الذي ضم منتخبات من شعره، والذي أصدرته رابطة الكتاب والصحفيين والفنانين الديمقراطيين العراقيين لم أطلع عليه .

هذه الظروف كلها ضاعفت من صعوبة المهمة ووضعتني وجهاً لوجه أمام امتحان عسير. غير أن ما جعلني أخاطر فأمضي في طريقي متجاوزاً العقبات أن الاختيار مهما كان غير وافٍ، أو بكلمة أخرى ، غير معبر تعبيراً كاملاً عن هوية الشاعر وفنه ، فإنه يبقى جزءاً من نتاج الشاعر لا يمكن نكرانه، والمعرفة بهذا الجزء أفضل من السكوت عليه.

ولد الشاعر في أبي الخصيب في مدينة البصرة عام 1947 . وهذه البقعة من أرض العراق أهدت الشعر العراقي المعاصر كوكبة متألفة من الشعراء يقف على رأسها الشاعر الذي ترك ميسمه على الشعر العربي الحديث في جميع اقطاره ، أعني بدر شاكر السياب ، كما أن سعدي يوسف ومحمود البريكان وآخرين من بين ابرز المبدعين العراقيين هم من ثغر العراق الواقع على شط العرب والمطل على البحر . وشط العرب كما هو معروف – ملتقى دجلة والفرات – وهما من بين أشهر الأنهر في العالمين القديم والحديث ، وقد ورد في الأساطير أنهما من أنهر الجنة.

تُرى للطبيعة في هذه المنطقة دورها في خلق الشعراء وتدفق ينبوع الشعر ؟ أم أن الأمر مجرد مصادفة جميلة من مصادفات الطبيعة ؟ رب قائل : وماذا تقول في الكوفة والنجف الاشرف ، وهما في قلب الصحراء ، وقد منحا الشعر العربي عمالقة إن خبت الذاكرة العربية يوماً فلن تخبو أضواء المتنبي ولا الجواهري الذي رحل عنا منذ وقت قريب ؟

لنكفّ عن هذا التخمين ، فإن العراق موطن الشعر منذ أقدم العصور . هذه ملحمة جلجامش ، وهي أطول وأروع النصوص الشعرية المعروفة في العالم ، يرقى تاريخ نصها المكتمل الى بداية الألف الثانية قبل الميلاد ، أي قبل الملحمتين الإغريقيتين الإلياذة والأوديسة بألف وخمسمئة عام أو يزيد .

ماذا أردت من وراء هذا كله ؟ أردت ببساطة أن أقول إن مصطفى عبد الله ولد في بيئة تعرف الشعر وتحبه وتمارسه . وفي مثل هذه البيئة يقول الشعر كثيرون , منهم من يترك الطريق بعد فترة قصيرة , ومنهم من يسير على الدرب حتى النهاية . ومصطفى عبد الله واصل كتابة الشعر حتى رحل عنا في وقت مبكر , في وقت بدأ فيه فنه ينضج , وكان يمكن له أن يعطي ثماراً أكثر إيناعاً مما هو بين أيدينا .

يمكن تقسيم إبداع الشاعر الى مرحلتين : المرحلة الأولى هي التي عاشها في العراق حتى عام 1978 حيث اضطر الى الرحيل ليستقر مدرساً في المغرب . والمرحلة الثانية تبدأ بهذا التاريخ وتنتهي بوفاته الاعتباطية في حادث سير عام 1989. وبين الميلاد والموت ثلاث وأربعون سنة كافية لإنضاج المخيلة المبدعة وغير كافية كذلك ... وتبقى هناك استثناءات في الشعر العربي والعالمي تقول غير ما نقول: هناك رامبو وطرفة بن العبد ؛ هناك جون كيتس والشابي ، هناك شيللي وبدر شاكر السياب ؛ وعشرات غير هؤلاء قالوا الشعر وأثروا في شعر الأجيال التي تلتهم , ولايزال بعضهم مصدر إلهام للشعر والشعراء , وغادرونا وهم في عنفوان الشباب .

لسنا هنا بصدد المقارنة وإنما نسعى لإلقاء بعض الضوء على النصوص التي بين أيدينا , وعلى وجه التحديد هذه النصوص المختارة من الفترتين . تتميز الفترة الأولى بالاحتفال المفرط بما هو يومي وعادي , ولكنه يمتد الى عصب الحياة ليشكل ملامحها الرئيسية في العراق حيث يعيش الإنسان حالة حصار خانق : إنها تتحدث عن الإنسان وهو يشق طريقه بين صفين من الحراب المشرعة , بين الفقر والحرية المخنوقة . ويتوقف مدى نجاح هذه النماذج على قدرة الإيصال لدى الشاعر وعلى أدواته الفنية من جهة , وعلى مدى صبرنا في اكتشاف الزوايا الخفية في فنه من جهة أخرى .

النصوص الأولى معظمها مأخوذ من الديوان الموسوم ((بين الكل)) الذي كام مؤملاً أن يصدر عن اتحاد الكتاب العرب في دمشق , بل وحصل على موافقة الاتحاد , ولكنه لم يطبع لسبب من الأسباب .

في ((المداهمة)) نشعر بحيرة ما , نتلمس الضجة التي يخلفها الباب المنغلق وراء انسان هارب : يحاصرنا ذبول الابتسامة في وجه الطفلة , بينما يداهم الصمت هذا الإنسان وهو على الرصيف بين ((فكوك العمارات)) والعربات التي تتوقف عنده ثم ترحل ... هذا التقابل بين الضجيج المعبر عن الحركة في حالة الهروب في مكان يفترض فيه الهدوء هو البيت , وبين الصمت المريب المعبر عن الحيرة أمام المجهول في مكان عام تفترض فيه الضجة هو الشارع , هو الذي يمسك بنا وي طرح علينا السؤال : هل تنجح الضحية في الإفلات من المطاردين غير المرئيين , أم تبقى تبحث عن مأوى دون جدوى ؟ وإذا نجحت هذه المرة هل تنجح في المرة القادمة ؟

لا سبيل إذن سوى التغيير أو الرحيل !
وفي قصيدة ((رحيل)) ينتصب الصمت أمامنا من جديد :
((كان ضوء الطريق
بارداً مثل عينيَّ
صامتاً

تماماً , كما شلتُ أمتعتي ورحلتُ .))
وظيفة الصمت هنا هي تغطية الرحيل الاضطراري أو الهرب كما في القصيدة
السالفة . والصمت لدى الشاعر رمز متعدد الوجوه يعتبر عن القهر والتواطؤ كما
يعبر عن الحيرة والغربة , وهو أداة للاحتجاج والمقاومة في أحيان كثيرة . ويبلغ
هذا الرمز ذروته في قصيدة ((سيدي الصمت)) وهي من قصائد المرحلة الثانية .
وفي العراق حيث تصادر حرية الانسان ويضيق مجال حركته حتى يتلاشى , يرى
الشاعر في وطنه قطاراً معبأً بالحقائب ، ويرسم صورة غاية في اليجاز والبلاغة
عن عملية تغليب الإنسان واستلابه، وإلا فان المقصلة هي البديل :

أيها القطار ... يا وطني

((يريدوننا جاهزين .

مثل الحقائب ,

نهبطُ

أو نتوجه للمقصلة .))

وتصور ريشة الشاعر تفصيلاً آخر في المشهد العراقي , هو صديقه الذي غير جلده
عند منعطف الطريق ., وقصيدة ((الأموي)) تعبير عن اغتراب الصديق عن
الصديق في لحظة النقاء بالمصادقة , بل وعن محاولة تفادي هذا الالتقاء .
وفي المختارات الباقية التي تبدأ بـ ((كتاب عباس بن فرناس)) ينشغل الشاعر
بهموم الحرية من موقع مختلف شكلاً متطابقٍ مضموناً فتشرف لغته وتقترب من لغة
الشعر الصافي , وتكاد تتطابق مع قصائد المرحلة الثانية التي كتبها الشاعر خارج
الوطن , وهي تتفق معها في كونها قصائد نثرية في معظمها .
إن الغربة في نتاج مصطفى عبد الله تحفر هيكلأ يؤدي الشاعر فيه صلواته ويتحول
فيه الوطن الى جواز سفر وعلبة سجائر :

((أنا الأجنبيُّ

عرفتُ حدودي

فرتبتُ لي وطناً من ورق

- إنه علبة للسجائر -

وحين يباغتني في المقاهي القلق

ويتبعني مثل عود الثقاب

ألم متاعي وأشعل سيجارتي
ثم أمضي
خفيفاً ،
بما يحترق... !

.....
.....
تعلمتُ أن أنتظر

وأصنع لي وطناً في جواز السفر .
ويستحيل البيت الى حقيبة سفر جاهزة للرحيل ، أو هي في رحيل دائم . هذا الحس
بالمطاردة لايفارق الشاعر حتى في منفاه الاختياري ، بل يتخذ شكلاً آخر ، فهو
يعرف أن عليه أن يكون دائماً وأبداً الأخير ((... تعلمت أن أنتظر ...)) ،
عليه ان يكون صبوراً وأن لا يحتج على التمييز ، فهذا قدر من يعيش خارج وطنه ؛
انه الأجنبي ((حتى وإن كان جميلاً !)) . وقد خبر السياب هذا الإحساس وسجله
في النصف الأول من الخمسينيات في قصيدته ((غريب على الخليج)) فحتى
العيون المشفقة تطعنه في الصميم :

والموت أهون من ((خطيه))

من ذلك الإشفاق تعصره العيون الأجنبية

قطرات ماءٍ ... معدنية !

ترى هل نجح الشاعر في تناسي جرحه ولو مرة واحدة ؟

أشك في ذلك ، ففي قصائد المرحلة الثانية يتحدث عن الحرية بطريقة أخرى ، و((
مكاشفاته)) أشبه بالتراتيل الصوفية في محراب الحرية ، تلك الحرية التي تتوحد
مع عناصر الطبيعة الحية والجامدة ، مع المرأة والعصافير والشجرة ... الخ .
إن قصيدة ((الحجر الذي رأى)) والتي اثرنا أن تكون أشبه بالقفل لهذه المختارات
، استطاعت أن تحدد ، بصورة غير مباشرة ، التقاطع بين الماضي والحاضر ،
وكذلك التشابك بل والتطابق بين قيم العصر العبودي في العراق القديم والقيم السائدة
اليوم في عراقنا المعاصر ، وبين الرعية آنذاك و ((الرعية)) الآن . كأي بالشاعر
أراد ان يقول أننا نعود دائماً الى نقطة البدء مهما أوغلنا في رحلة الزمن والحضارة
: فبابل القديمة هي بغداد المعاصرة ؛ والملك بجنده والآلهة كذلك ليس سوى وجه
واحد من وجوه ((عبد الله المؤمن ؟)) حاكم بغداد المنصور بالحراب على شعب
طال عذابه ؛ على شعب حشد العالم كله ضد أطفاله الجوعى والمرضى بغروره
الصفيق واندفاعه نحو السلطة الهوجاء .

وفي نهاية هذا المدخل الصغير لابد من التنويه في أن ثمت حاجة لأن ينشر نتاج الشاعر كله , وأن يأخذ حقة من الدراسة والنقد بحيث يصبح من الممكن تحديد موقعة في ديوان الشعر العراقي المعاصر .

الجمهورية التشيكية - براغ في 1998\1\26

لا أعرف ماذا أرسـم
أعطوني الألوان وقالوا :
إرسـم وجهاً يبكي لا يدري ماذا نعطيه فيسكتُ
إرسـم سيفاً يحـرث فوق الخدين
إرسـم صوتاً متعب
تاه بصحراء المغرب
إرسـم عينين دامعتين
إرسـم وجهاً بشرياً؟!

أمد يدي
أعجن كل الألوان
أسقطها فوق الطين , وأشرب .
خُذْ كأساً يا مَنْ صارت أحلامك لَصاً.
ها إنني تمتد يدي ،
منتظراً أن تصف الألوان
قد قالوا : إرسـم وجهاً بشرياً
لا يدري ماذا نعطيه فيسكت
... وأمد يدي
دَع قدميك الهاربتين
تأخذ مني مفتاحاً
دَع وجهك يأخذ من ريح الزرع المحتضر
من دبق النهر المكري ,
قدر شهيقين

صارت أوراقى سوداء
والصيف يميت الأشجار الغضة
لو تأتي , أصنع لي زورق
قلبي دقته
عيناى الريح
وأعصابى حبل بشراعه
... هل تحبل بي سحب

يا ألواني إني جئت
كي أرسم وجهاً لا يبكي
وجهاً يصف الآمال , يُسمي الأشياء.
يا ألواني جئت ولن يعبر فصل لا أعرفه
أو ميلاد لا أعرفه .

1968

ياخْلوة التابوت

تمهلي

فكلنا يموت

1

نعم , كانت الأرضُ

كلها , كانت الأرض سوداء ؛

الدجاجُ الذي لم يفر

والكلابُ التي جلست تنتظر

كلها والحصير الذي لم تتمّ عليه صلاة العشاء

نعم والأواني وكيس الطحين

وأمي التي بقيت وحدها

والعجين .

2

هذي ليست بدلته الخاكية ,

وهذا البسطال

وهذي الكتف

وهذا الوشم

وهذي الضرس الذهبية

وهذا الشعر الأشيب

هذي ليست لأخي ,

كان صبيّاً حين توادعنا في فجر الحرب .

3

((صاحبُ منهل))

صعد الدبابة

وتحسس أزرارَ التحريك

والعتلات الدوّاره

جربَ اسم الأمر مهدي بجهاز الإرسال الرأسي

شمّ هواءً من أنبوب الغرفة ,

وغطى بالطينِ مصابيح العدادات .

صاحب منهل
يُنصتُ لليل المحروق على الطرفين
- خلى* في البيت الليل الصيفي
وجوداً مربوطاً كالبسطل.

صاحب منهل
لم يتمهل
صعد الدبابة بالسنوات العشرين
في اليوم المجهول ،
ولم ينزل .

4

كنا نفرش هذا السعف الأخضر تحت الشمس
ويأتي الصيفُ فينشف ، ثم يجيء شتاء البرد ،
فنوقد فيه النار وندفأ .
كنا نصعد للنخل ونقطع طلعا نأكل منه
ونصنع من بعض اللقاح القرب الصفراء .
وكبرنا قبل النخل
وظلَّ النخل يمرُّ
وظلَّ السعف الأخضر واللقاح
وظلَّ الخوص يمرُّ علينا صيف شتاء .
- يا صبر النخل علينا في الحر وفي البرد القارس-
وعبرنا الشطَّ الى الدنيا ..
مثل الاسماء
هزتنا ريحُ .
وانطفأ المصباح .
... كانوا مجتمعين - صغاراً - تحت النخل
فاشتعل الظلُّ
والتَمَّ العمر سريعاً حول حناجرهم .
كبروا مثل النخل
وافتقروا فرداً فرداً مثل السنوات الحمراء
بين رماد النخل .

*خلى: بمعنى ترك, عامية .

5

أنت أخذت الدواء
حسناً , فلتكن نبضة القلب أقوى
وليحلّ بصدرك كلُّ الهواء
لا تنن
إنها لحظةٌ وتمرُّ
تحمل على الوقت رفةً روحك
تهبط للقبر مثل السلام .
وقاوم يديك اللتين نسيتهما والسلاح
وقاوم بعينيك هذا الظلام .
وقل للورود التي حضرت
وللأصدقاء المصابين والأخوات المصابات
والأمهات اللواتي تغيبن عن مجلس الفاتحة
وقل لأبيك السعيد
إنها لحظةٌ وتمرّ
وقد مرّت البارحة.

6

لا حدّاً أقصر من دمك
ماءٌ تكسّر في إناء
مثل البكاء
فالدمع يصلح للضحك.

7

دمي
أيها النازفُ الحلو
لا تكن خالصاً وثقيلُ .
واحترس أن تلون هذا التراب
وحتى الثياب
وكن مثل قطر الندى .
لفحةً من هواء قليل ،
تكفي لتمحو رسمك
وتحفظ وجهك : أن ينقشَ الدود فيه
وأن يستريح عليه الذباب .

8

غالباً ما ننام
وننسى الرصاص الذي لا يكفُّ
ونحلم ألا نموت
لم نعد نستحي عندما لا يموت لنا أحدٌ
ويموت من الناس - جيراننا - مَنْ يشاء
وننسى الرصاص يمرُّ الى مَنْ يشاء
لم نعد نستحي عندما لا نموت
فحزناً - لحظة فتح التوابيت حتى تفوت .
إنها الحرب فينا
وقد صَفَّقَتْ للسكوت الطويل
هنا بين أعيننا ولسان القتيل .

9

مرةً نأخذ الشطُّ
- نحن الصغار -
ونأتي به راجفاً بين أجسادنا والثياب البليلة .
فيضربنا أهلنا .
ونرجع بالشطُّ - مرتجفين - الى بيته .
- انه لا يبالي ، ويعرفنا واحداً واحداً
ويعرفُ كلَّ اللعب .
مرةً يأخذ الشطُّ منا أصابعنا
وقد نحتمل
وقد ننتهي فنموت
ولكننا لا نحاذر من شطُّنا
إذا ماتناسى اللعب .
ربما كان للشطُّ لونٌ وكانت له رائحة
فيعرفها أهلنا في الثياب التي نشفت فوق أجسادنا
فنخاف ، ونصعد للنوم دون عشاء
ربما كان شطُّ العرب
حلماً ثم لم نتذكر
ربما كان يأخذنا ثم نصحو
ونأخذه ثم نصحو فلا نتذكر

ربما ،
كان كأساً من الماء ،
نشربها .
ومرت بأيدينا
طلقةً

فتكسر؟

10

توابيتنا الفارغة
تفرقنا في الزحام
وتجمعنا للصلاة على الميتين .
توابيتنا مثلنا خشب في خشب .
ولما تضيق بنا أرضنا الغارقة
ونفشل في الطفو مثل الخشب
تهل علينا توابيتنا
من الغيب مفتوحةً واسعة .

*العنوان ليس من وضع الشاعر .

ترحيل..... إلى الأطفال والحجارة

1. أيام

لم يخرج للبحر الصيادون.
ومراكبهم ,
بقيت فوق رمال الشاطئء كالأحذية المقلوبة
لم يتحرك فوق البحر هواء
أو يرمش ماء
فاتكأ البوليس على الجدران .
خمسة أيام
وقعت فوق البحر بدون كلام
وقعت فوق سواعد عمال الشحن وعمال التفريغ
وقعت عند الأبواب
عند المنعطفات
بين أكف الصبيئة والحلويات .

2. رَجُل

عند الساحل
سقط (جواد)
عند الساحل
وجدته الدوريات المحتلة
مجروحا تحت الكنف ومفروق الساقين
ضربوه
فتحوا في السجن دَمَه
لكنَّ ((جواد علي حسين))
لم يفتح فمه
فانفتح البحر له
كان جواد
كالموجة تدفعها الريح
محنياً بين الضفتين
كان جواد
فوق رمال الشاطئء

مضمومَ الشفتين .

3. رجل آخر

أنت النحيل المكابد

يا صديقي

أعرف

أعرفهُ الدم لا لون فيه

على الاسفلت ماء وشكلٌ يدور مع العجلات

وأعرفهُ مثلما كنت تأتي

وتمضي

وأعرفه مثلما كنت تبقى

هذه أرضنا القاحلة

بين التآني مع الزهر والمقصله.

يا صديقي النحيل المكابد

لم يصنعوا الليل حتى تنام

ولكنهم اجبروا الماء أن ينحني

ويأخذ من دورة الدم فوق الرصيف

لونها في النهار.

4. طير ورماد أزرق

الزهرة والطيف

أخذا خوفي للبحر

عادا لي محترقين

وكنت وحيداً بين يديّ الخائفتين

الزهرة والطيف ,

فوق رمادي ارتجفا

كان ردائي شفافاً وشتائي طيراً أبيض .

حدثني الطيرُ الأبيض

عن شجرٍ أبيض

ودماء بيضاء

قال : إقطع حبل الخيل لتصنع غابةً

فرسان وكلاب

قال : انهض للأبيض في ليل الخوف

للأبيض في اللون المحروق

خوفٌ قدام الباب
خوفٌ يصلُ
فأفتحُ باباً بئياي ... أخرجُ للبحرِ
لتتبعني الأشجار
والنومُ الخائف

بعصاي أخبئُ آثاري .
لا أعرف كيف أنصرف الطير
وتوالت أجنحة الريحِ
لا أعرفُ كيف أخذتُ شهيقِي
وحملت رمادي الأزرق
ثم مشيت ؟

5. خبز وضوء مشقوق

هدأتُ بالخبزِ الرقبة
فتساوى الماء
بين الأحياء .
وأقرتُ كفتُ منتصبه
فوق دمي

هدأ الخبزُ
بضماذ ورماد وعيونٍ مستتره
هدأ الخبز الحار
في أنيتي المرتجفه
حتى مال الظلُّ على العتبة

هذا الخبزُ
شيء يأتي أو يرحل
لا تتبدلُ غير الأفواه
وجلود الناس
أو قاماتِ الأحياء

هل هدأت خاطرتي
أم ملتُ مع الظلِّ وأهملتُ !
من يكسرني
هل هذا الخبز
أم هذا الحجر
أم هذا الضوء المشقوق على صمتي ؟

مداهمة

تضيقُ الشوارعُ من ضجّةِ البابِ خلفك منطبقاً،
قافلاً دورةً الابتسامة في وجه طفلتك الواقفة ،
مع النوم دون حذاء .
تراخيتَ عند الرصيف
يдахمك الصمتُ بين فكوكِ العمارات حولك -
والعرباتُ : حقائبُ سوداء ، تأتيك مسرعة
تتوقف عندك مفتوحةً،
وترحلُ منطبقاً .

رحيل

كان ضوء الطريق
بارداً مثل عيني
صامتاً
تماماً , كما شئتُ امتعتي ورحلتُ .

أيها القطار ... يا وطني

يريدوننا : جاهزين .
مثل الحقائب ،
نهبطُ ،
أو نتوجه للمقصلة .

الرحيل

حين خرجتُ
أخفى عني الطين الناشف بين جيوبه
ثم تقدّم يسبقني...
حين خرجتُ
وكنتُ خفيفاً مثل الطير الناشف
أخفيتُ وراء الظهر حقيبه.

قصيدة

سنواتي للزهرة والطين
سنواتي
للأشكال المنصوبة في ليل سجين
للدّم الأزرق بين أكف الجلادين
سنواتي
للجسر وقامة هذا الماء
للشجر المتكبر والأعباء
سنواتي
للطير الأبيض
والبيتِ الحي .

صديقي الذي مرّ ، كان صديقي ، ولكنه كان مبتسماً
حين مرّ ولم يلتفت .

صديقي الذي مرّ قبل قليل ، وأخفى جريدته ، قافلاً
فوق عنوانها كفه : - لماذا

-: لماذا تجاوزني خلف كتفٍ ، تبادلَ موقعه معها ولم
يلتفت .. ؟ .

صديقي :

أتذكر كيف تأففت في آخر الليل ، قلت : الطريق حجارٌ
ومستنقعاتٌ تفيض بقيء السكارى ، وماء غسيل المطاعم ،
يسترها الليل عناً ، ونسترها بالتمني .. ؟ أتذكر ، كيف تجاوزتني .

تذرُّ عليك الرياحُ غبار العماراتِ أسودٌ
وتنهضُ رائحة الضوءِ فوق المجاري ، فتسرُعُ .
هنا في الطريق توشُّ الرياحُ ، وفي الشرفات يوشُّ
الهواءُ المُبرِّد .

وأنت الذي كان يبحثُ عن خاتمٍ ، ثم يفركه
فتأخذُ كلُّ يدٍ حقّها .

وتنهضُ في الأرضِ دور الحضانيةِ والمكتباتِ
ويتسّعُ الأمنُ والطرقات .

تجاوزتني ، قلت ، تسخر مني : تدبّون مثل الشيوخ
على زمن لا تُدير رجاه العُصيّ ..! ألا نلتقي .. ؟

تشاغلَت عني ببابِ النقابةِ ، في السوق ، حين
اصطدمت بكتفي ، اعتذرت . رأيْتُكَ مرتبكاً بعيون
زميلك ، حدّق بي والجريدة .

وفي الليل ، وحدك كنتِ ... الشوارعُ خاليةٌ فهممت
تقبّلني (!) ثم قلت : ألا زلتِ ، لم يضعوا في قفاك

العصى . وقلتِ : عرفتِ العقودَ التي يملأ الابتسامات
فيها صديقُ المقاولِ . والخشبُ الساجُ يلصفُ⁽¹⁾ بين

إرتجافِ الدوائرِ في القِيظِ . قلتِ : أنا الفردُ -

والملكُ المستريحُ الذي لا تطولُ عليه التقاريرُ ،

(1) يلصف : يلتمع بشدة .

أنا الحرُّ ، عندي مفاتيحُ كلِّ الحدود ، أشدُّ
جناحي غداً وأطير !!

....

تُرى كيف لم نتسع للزحام ..؟
يضايقنا في الصباح الضجيجُ ، وفي الليلِ ،
يُقلقنا صمتُ هذي الشوارع !!

....

صديقي الذي مرَّ قبل قليل
يجفُّ مع الصيفِ ...
يهطل عند الشتاء .
لماذا تخيلته في الزحام خطى تتوازي ،
وفي الشطِّ فضلةً ماء ..؟
لماذا تخيلته ،
على شجري ورقةً في الخريف ..؟

1977

المألوف (1)

بادلني جاري بدلته
وطريقته في الأكل وشربِ السجارة
بادلني زوجته ،
وعناقَ الأطفال .
بادلني صبره
بادلني قبره

أنتَ المطعون
الآخذ شكلي
الآخذ دوري
في النوم وفي التوقيف .

المألوف (2)

نُسرِعُ بالخبز .
نُسرِعُ قبل اليقظة والنوم .
نُسرِعُ قبل الليل .
قبل السكين .
قبل التهمة .
قبل الفتنة .
نُسرِعُ بِالْعَرَقِ المَغشوش .
قبل الصمت .
قبل الصحوة في قلبِ الطفلِ ،
ظلَّ وحيداً بين الكلِّ .

في ليلة أمس
نشط الطقس
كان ظلامُ الغرفة مُحترَماً ، لم يمسه الضوء
وقد خرج العمالُ نظيفين . وسدّوا الباب الأسود
والشباك الأسود ، دون ضجيجٍ ، غيرَ اصابعهم
وحفيفِ الورد .
كانت في الأعلى قربَ الله ، الغرفة كانت في الأعلى .
العمالُ انيقون بعطرٍ واثٍ وخواتم (لاصفة)*
والقمصانُ منشأة والبدلات السوداء مهياة يلمسها
الضوءُ فتشمخُ دون صرير .
أبيضُ هذا الوجه النائم بين الوردِ ، نظيف
وأنيق كأمير ... أبيضُ بين الحيطان البيضاء .
أبيضُ هادئ قربَ الله ...
فتوالى العمال الخمسة كالنقر الهادئ فوق الباب
سدّوا فمه بالقطن الرطب ، فلم يتحرك طرفُ
فيه ، حتى ارتفعت " جوزته " تحت أصابعهم وانحطتْ ،
وتراخى شيءٌ في فمه .
كانت غرفته في أعلى . كان وحيداً قرب الصمتِ .
وفي ليلة أمس ،
فكّر بالشمس ...
ورتبّ شرشفه الأبيض ، أحرق أوراقاً ، ولعلّ
رسائله لم يحرقها ... خشية أن يمسكها العمال
النشطون الساعون .
الجسدُ الحافل بالصمت الأبيض ، والزهرةُ تذبل ،
تذبلُ تحت الحاجب مثل الجفن . ورائحة الصابون
الناشف تنشفُ بين اللحم وأصداف الإبهامين .
خرجوا للشارع . كان الفجرُ سخياً فوق شواربهم ،
لاشيء تنفس . تَمَّ الفعلُ خفيفاً كالغمزة ...
كالنملة تحت حذاءٍ كاتمٍ ... ترللاً تمّ .
تمّ ، تمّم ... تم ... تمّم ... هَرُّ الكنفين .

* شديدة المعان .

غرفة خارج الوطن

أخفيتُ نهاري في المقهى
وأكلتُ ، شربتُ ... وكان جوارِي رجلٌ يبكي
والشمسُ تمدُّ من البابِ إلينا منديلاً أبيض .
لا أدري كم يومٍ آتٍ ، كي أرتاح
خبأتُ كتاباً ، لم أصبر حتى خبأته .
والشيءُ الباقي في الغرفة كان فراشي ،
والشاي نسيتَه .
أما قمصاني ، فكُرتُ بأن أتركها أو أعطيها
للبحر .
هذي الأشياءُ المرّة تحضُرُ في الليل وقبل
النومِ فلا أهتمُّ ...
اليومُ الباقي خلفَ اليومِ الباقي ...
حتى أرتاح .
اتَّسعتُ حولي خطواتي ، والليلُ الضاربُ
في الطولِ يطولُ ، فينبُحُ كلبٌ ثم يبول
أريد ... ولكني أعرفُ أنّ الرغبة في الليلِ
متاعُ الكسلانِ ... تمنّيتُ لو أني أدعو كلَّ
الجيرانِ ضيوفاً عندي الليلةَ ... حتى
أدركتُ الكلبَ يبولُ ، فغافلني ومضى
مندساً في الليل .
ليلَ نهار
وطني في الغرفة يجري
أتركه يَعرَقُ فوق فراشي
ليلَ نهار
مثلَ النهر .

مطرٌ أبقاني ، فخلعتُ ثيابي ، بعد الصبر
ريحٌ بغبارٍ ، أبقنتني ، فخلعتُ ثيابي ، بعد الصبر
شمسٌ حارقة ، فخلعتُ ثيابي ...
أناسٌ يمضون ، يجيئون ، وأشكالٌ ، خلفَ الشبّاكِ المغلقِ تنحلُّ
وتبدأ أشكالٌ يمسحها الجأُّ ويجعلها فوق الحائطِ قربي رائجة
تلهو بالصبر .
أبقى . لا أقدرُ إلا أن أبقى .
أقدرُ أن أخرجَ في الريحِ المغبرةِ ، والمطرِ الفظِّ ، ولكنَّ العمالِ
السريين بقدرِ كراسي الأرضِ وقدرِ مقاسِ القاماتِ
وقدرِ حواسِّ النبضِ .
أعرفُ أن النزهة تجعلُ أيامَ البشرِ الدوّارين تمرُّ ولا تشبه
أسنانَ المشطِ ، فتنبسطُ الضرباتُ على الأوجهِ ، والأسنانُ
تظلُّ لتكفي للأكلِ .

أيتها المرأة ،
يا سيدتي
ذبلت باقة الزهر على طاولة فطورك
وأنت لا زلت غافيه
أما ألقىت أصابعك الدافئه ،
على شوق هذا الضوء الذي يقاتل على ستائك ..؟
أيتها المرأة
يا سيدتي
رحل الحرّاس ، وبقيت أشجارك في الحديقته دون عصافير
أنت كلها لتنهض معك :
غابة من أجنحه وحشداً من تحيات
أيتها المرأة
يا سيدتي
-ها انذا ، انتهيتُ من حلمي
ووجدت على نافذتي المشرّعة ، آثار العصافير التي غادرتني
وذهبت لتنهضُ معك
غابةً من أجنحه وحشداً من ترائيل
أيتها المرأة
يا سيدتي
ملتُ مع هوائك فلم يسندني الفراغ
ولا العصافير ..!

1979/3/8

زهرة للمواطن

- زهرة واحدة للمواطن -

أنا أو أنتِ -

وفي هذا البستان ذي الصوت اللامع ،

المحفور على لساني ،

لا تكثر الأزهار ،

بل تتسع .

* * *

كلّما قرّبتك ابتعدتُ عنّي زهرة

وكلما ابتعدتِ ضاقت بي خطواتي .

على هذه الطريق :

ابتعدتُ واقتربت

منكِ وعنك

واحتملتُ وتحاملتُ .

* * *

احتملتُ القاتل

فكيف أحتملُ القتل ..؟

* * *

للزهرة المسنّة

عزاءُ الجهد المتأوّل في الثمرة

لكن قاتلي يُريد أصابعي على هواه

ورأسي على طريقته

لا يريد شيخوختي

بل الزهرة التي انحنّت لها شيخوختي .

* * *

كيف لا أضيّقُ بكِ -

أنتِ التي تراعين شيخوختي !..

* * *

إجعلِي مواطنتي بكِ

وليسْتِ إليكِ

* * *

حاربي من أجل جهدي الذي صنّعه

كي يثمر ،

هكذا تعرفين :

لَمْ تجلسِ الحجارة لتصير تمثالاً خالداً

ويصعدُ (هندال⁽²⁾) إلى المشنقه .

1979 -3 -15

(2) هندال : قائد نقابي تقدمي من البصرة .

الجنّازة

... إلى محمد مطرود

إنني أنظر للكيلومترات بيننا
هذه السلاسل الطويلة
مُفكراً :

بالمراوح التي تدور في الشتاء
ومقاعد البيبسي كولا
مُفكراً :

بقلائد الدنلوب الثقيلة
التي وضعوها في رقبتيك
وأنت واقفت على رجلٍ واحدة
لا أدري

من حفر الآخر
أنا أم خندقي
هذا الجرح المكشوف على خاصرة أرضي .
-إنني أنظر

لهذين الرصيفين المتداخلين
كشوكية وإظفر
مُفكراً بالجنّازات التي توارت في الصناديق
مستقبلةً بالمودعين
ومودعةً بالمستقبلين
* * *

كيف اختلفت الغايات
على حافة هذا الخنجر الذي يفصل بيننا .

لن تَسْتَوِي الرَايَاتُ وَالْأَشْرَعَةُ
لن يَسْتَوِي الْمَتَاهِبُ وَالْمُنْحَنِي
أَعْرِفْ هَذَا

مِثْلَمَا أَشْمُ رَائِحَتُكَ يَا صَدِيقِي
بَيْنَ حَدِّي هَذَا الْخَنْجَرِ الَّذِي يَفْصَلُ بَيْنَنَا
لَقَدْ جَلَسْتُ أَمَامَ جَنْتِكَ الْوَاقِفَةَ
مَفْكَرًا بِمَنْ يَسْتَنْدُ عَلَى الْآخِرِ
- أَنْتَ أُمُّ الْحَبْلِ الَّذِي دَارَ حَوْلَ عُنُقِكَ ..؟
وَلَكِنْ

مَتَى اسْتَطَاعَتْ الْمَشْنَقَةُ
أَنْ تَصْنَعَ مِنَ الْجَلَادِ بَطْلًا..؟!!

1978/11/10

أيتها الشجرة ، يا أمّ العصافير
أنتِ تعلمين : لماذا يكون ماء البحر صافياً
في الإناء ،
وقاتماً في البحر ،
وأنتِ تعلمين أنّ الأغصان الحيّة
وحدها تملك الكثير من الماء
ماءً للعطش
ماءً للوضوء
ماءً للبكاء
أنتِ تعرفين ، كيف تتسّع الأسئلة كالجروح
عندما تضيقُ في أفواهنا العبارات
أيتها الشجرة ، يا أمّ الأجنحة الخضراء
والهواء الأزرق
اتركي الكأسَ مملوءاً بالماء البارد
والقدر مملوءاً بالخبز الحار
وأشعلي في الغرف أعواد البخور
البراعم تتفتّح
على رائحة فوطتكِ
وفي الخطوط التي حفرها على راحتيكِ
سخام الأواني والسنوات
أمّي :
عندما تستيقظين مبكرة كلّ يوم
يستعدّ العالم
وتتنفّس الصخور .

دائماً

دائماً

دائماً في العراق

دائماً في العراق الجميل

دائماً في العراق الجميل المضرّج

دائماً في العراق الجميل المضرّج بالزيت

دائماً في العراق الجميل المضرّج بالزيت والفقراء

دائماً في العراق الجميل المضرّج تنهض أغنيتي

دائماً في العراق الجميل تقاوم أغنيتي

دائماً في العراق تقاوم أغنيتي

دائماً في العراق

دائماً .

1- كتاب عباس بن فرناس

مَنِّي ،
ولا يتقَرَّب
ولا تتقَرَّبُ رِيحُ الشمال
فليلي شيخُ
وقلبي عصا .
ابتليتُ بهذا الحبيب
إذا جاءني صار عندي جناح
وتحتي سحابه
وعشِّي النسيمُ الشمال .

2- كتاب أبي العلاء

بين الشموع المضاءة والعثرات
ضللتُ طريقي
فهل جئتِ كي تأخذي بيدي
اتركيني –
أنا ممسكٌ بالحبالِ التي تُوصِلُ –
والمسيني .

* * *

أنتِ التي ما ينال الأمير
ويحني الفقير ..؟
أنا : سيدي
عصاي
وكلُّ انحنائي لقبري .

3- كتاب ابن رشد

بينَ بابي وسيفِ الأميرِ
اهتزرتِ
فألقيتِ ظلكِ في البابِ ،
ألقيتُ ظلي .
وحين اغتسلتُ ،
ورثبتُ بيتي
تركْتُ النوافذَ مفتوحةً للصباح .
فلم تنطفئِ شمعتي .
متى يطرقُ البابَ جنْدُ الأميرِ
لكي يحرقوني على كتبي .
فأمس اغتسلتُ .
أنا لا أضيءُ الرمادَ بناري ،
لماذا تحيرتِ مطفأةً ...
بين قلبي ونارِ الأميرِ ..!؟

4- كتابي

أتيتِ إليَّ مع البرد .
وحيثُ
رأيتِ
شتائي
ارتجفتِ

A

أخبيء وراء سنواتي ، وحدتي التي اقترفتها بدونك
أنتِ الضاحكة .

لَمْ تغاضيتِ عن كلِّ هذا الصمتِ ..؟

لَمْ خبأتني عندك ، مثل طعنة محتملة

أو مثل ثمرة مؤجلة ..؟

أحبكِ .

لستُ محتمياً بأحد

ولا مائلاً كظلِّ

لكن منفرداً بيدي وأظفري التي نبتت من أجل الهواء .

أحبكِ

لستُ مؤجلاً موتي

لكن به ، أتقدّم طاعناً أيّامي بالأشجار والاحتفالات .

أحبكِ

هكذا وحدي

من أجل ألاّ يجهل بكِ أحد .

B

أنا الرجل العادي

المعروف مثل كل الجرائم

أفكر بالاشياء التي تليق بي من أجلكِ

ليس بين يديّ غير الرغبة الذي أشتهيته هذا الصباح .

لكنهم ، هؤلاء المجهولين ، أمسكوني بأسنانهم

حتى سقط الرغبة ، تاركاً بصماتي مفتوحةً عليه

كرأسٍ فوق مقصلة .

تعالني
كل شيء أصبح متهماً هنا
الغابة ،
البحر ،
وثوبك الذي أهملت فراغه .

سأتركك وحيدةً
جائمةً مثل حركة خضراء
على سكون صحرائي الواسعة .

أيتها الزهرة
تنزهني بيننا .
أين السكون
بين يديّ ووجهك ؟

أقاوم في صمتك
كلام الليل .

افترقت ،
بين يديّ المتشابكتين .

اقتربي ،
بكامل افتراقك عني .

على جسم طائرنا
نحن أيضاً
نفترق مثل جناحين .

إذهبي الى الحفلات .
 ليس عندي غير زهرة وحيدة
 أضعها على طاولتي ، وأرفع صوتي بالغناء .
 إذهبي للعيون الناهضة بالعيون والابتسامات
 للحركة والتحرك
 وحينما يهدأ على الأرض الغبار
 قرّبي كرسيك
 لاستقبال باقة الزهر .
 * * *

عطرك
 ورأسك المتمايل
 لا يشبهان اغنيّتك
 ولا تفاصيل صوتك في ذاكرتي
 * * *

لماذا يجعلك سرُّ الحفلات
 تعلنين القتالَ أمامي في الحفلات ؟
 * * *

— يداي الخاليتان
 دافئتان
 وملء غرفتي الضوء والهواء
 لست وحيداً ،
 ولكنني وحدي .
 * * *

— أراك ضيقة بأصباغك
 خالية بينهم .
 هؤلاء المتضامنين على نحتك في أسرّتهم
 * * *

— شمعتي لم تنطفئ
 ولا قفل نافذتي الليل
 لكنني خشيئاً أن أذبل

ويضيغُ عطرُ زهرتي
وتقلقُ أغنيتي .

إذهبي للحفلات بابتسامتكِ المألوفة
إذهبي بكاملِ قامتكِ واسمكِ
بالأيام التي جعلتكِ تكبرين
هنا ، وعلى صخورهم .
هكذا أنتِ
وهذه قدرة الدمِ في شرايينكِ .
* * *

لماذا أضع زهرتي على الطاولة دون فرح ؟
لماذا وحدي مع الأغنية ؟
أيتها الباسلات
تعاهدي عليّ ، مع الضوء ، وقاوميني .

1979/3/12

إحملي هذه الزهرة
وانتظري غدي على حافة الشجرة .
دون مخاوف ولا احتمالات ،
حملتُ إليك لوني ومخاطرتي .
وأنا المنتظر
أن أبدأ الطريق بشيخوختي ، لكن باحتمالي .
وجدتكِ بالعطر ، وصفاء الماء البارد
فتخليتُ عن عطشي وحاربتُ لأجل حاضركِ الحي .
من أجلكِ أنتِ أيتها العافية
تقدمتُ بعمرى الثقيل
عابراً الحجر الجاف ، والانتكاسات المتوالية
وها أنذا
أواصلُ غيرَةَ الشجرة
وتمسكُ البرعم .
* * *

كيف خططتُ لهذه الألوان الواسعة على نافذتي .
كيف خططتُ لكل هذه الأزهار بيديك ،
والممتلكاتِ الجاهزة أبدأ للبدء بالاحتفال ؟
عندما أخاطر ،
وألبي قضاء الضوء في حياتي
أجدكِ ، بكامل عافيتك ، مفصلاً جلد الموج والرياح
ضماًداً لجروحِ هذا الشيخ الهائل ،
الذي أورتني عصاه وأصابعه المرتخية .
لا تخجلي وتقدمي بقناديلك ،
فأنا الذي انتخبتُ هذه الرحلة ،
وتحالفت وهذه الأشياء الحية...
أعترفُ بسنواتي ، عندما أنكسِرُ أمام غصنكِ الطري .
أعترفُ عندما أزيحُ قبعةَ ظلي كي يعبرَ ضوءك .
أعترفُ أعترفُ بسنواتي القديمة .

احتملتُ القاتلَ
فكيفَ أحتملُ القتلَ ؟

للزهرةِ المسنةِ
عزاءُ الجهدِ المتاولِ في الثمرةِ .
لكن قاتلي

لا يريدُ شيخوختي ,
بل الزهرةِ التي انحيتُ لها .

كيف لا أضيقُ بكِ
أنتِ التي تراعين شيخوختي ؟ .

لم تكثف هذه الحجارة بصمتها الرمادي
وتوقّفها المثلّم .

لم تكثف بالقراصنة الكبار ،
ولا الأحمال الملونة .

لذلك قاومت اندفاعي .

وجاءت لتصنع مجدها قي الخيول ،

وتقيم خنادقها الأصلية في بوادي الرعي .

وكلما تألف ضوء على قنديل ،

كلما ارتفع برعم على لحاء شجرة ،

جلست هذه الحجارة على صهوة الوطن

ووزعت الغنائم على أفراد القبيلة .

في أية منطقة للاعتداء

اكتشف البترول حطب هذه الأجساد ،

المفتوحة ، منذ هولوكو ، على حماسة الجراد ،

وغزل العاصمة ...

هكذا الحجارة تظن ، أن التوابيت

كافية للخبز والصلاة .

عندما اكتشف البترول قارتنا

اكتشف الحجارة لقبورنا .

-1-

هكذا ،

أعتدلُ على الكرسيِّ المائل .

بين أسنانٍ حاشدة ،

ووجوهٍ مسنَّنة ...

" إنهم يضعون على الجدران

صور الأعضاء المفككة

إنهم يضعون كلَّ شيء في مكانه :

الأظافر في منبتِ الرموش .

والخواصر بين الكلايب .

تأتي أصواتهم من وراء رؤوسهم .

يقفون ، مستعنيين الواحد بالآخر

يقاومون ، من أجل أن تبقى

أظافرهم وأسنانهم برّاقة ...

وهو يرى قمصاناً وأحذيةً منتفخة

فهذه أصابعه العشرون

هذه عضلاته الناحلة .

وهو بكامل شهيقه وزفيره ،

يجلس مُعتدلاً على الكرسيِّ المائل .

* * *

أنت تعرف ، كيف تنتفخ أوداجهم ،

عندما تتضاءل مطاميرهم أمام ابتسامتك .

وكيف تتكاثر الشواربُ بين أكفهم ،

عندما تقلُّ قاماتهم بالبحر الذي آلف عينيكَ .

أنت تعرف الظل ،

هذا المنافق الكبير ،

بين الظلام والضوء .

تعرف الخبز المتسع كالحرب

والناسَ المسرعين كالعربات .

أنت تعرف الصمت

والكلام الموجل حتى يحضر الغائبُ العزيز .

-2-

عندما أدخلوه إلى غرفته الضيقة ،
ضاقت بهم غرفهم .

* * *

○ لماذا يكون السقف بهذا التدني ،
عندما يقف .

وتكون الأرض بهذا العلو ،

عندما يجلس ..؟

○ بين أكتفهم السياط ،

وعلى جلده الجروح ،

فلماذا يشكون ..؟

○ لماذا يرتجفون

عندما يجسّون ثيابه المبلّلة ..؟

○ لماذا يصرخون ، مجتمعين

على صمته الوحيد ..؟

نحنُ - خالقي المتعة المشبوهين .
نضحك مكتشفين مهرجاناتٍ صغيرة ،
بين أكداس أعمارنا المضطَّهدة .
نحن المنسيين - أحياناً - في غرفِ المحقِّقين
نطالبُ الآخرين
بالتوجُّه للحدائق والجلوس مع الخبز .
نبدو : كأننا ننسى
كأننا أمسكنا بقطارٍ بشريٍّ وأطلقناه على قرية مهجورة
كأننا حجارة متوجهة
نبدو : كدبوس أضاعته السلطةُ في فراشها !..

المقايضة

لـ (فاضل حميد) وأطفاله الأربعة

يستيقظُ الخبز والشاي
والصباحُ الملبّدُ برجالٍ سرّيين .
وإذ تستعدّ الشجرة للشمس والماء ،
وتفتح مناقير العصافير على الأزقة الضيّقة
يقتسم فاضل حميد وزوجته الحاضر الوحيد
لهذه الوجوه المدوّرة .
أتذكّر صديقي
أتذكّره داخل " دشاشته " البيضاء
مُنْتَظِمًا على خطواته الطويلة ،
بين بابين وشارعٍ وحيد .
لعلّ ملامحه تزاومتْ عليها أشكالُ المحطّات المتداخلة
لكن هذا المستقبل المكتوب على إظفر فاضل حميد ،
وأعضائه التي كانتْ تقاتل في غرفِ المُحقّقين
هذا المستقبل المربع
الذي يملأ البيت بالضجيج والساعات
يجعلني أعيذُ التفكير: بالخدق والحفره .
يا فاضل حميد
هل تسمع طنين هذا الذباب
المُنْدَسِّ في الأفواه الجائعة ،
مُدّعيًا أنّه يبتكر الخبز ..؟
هل ترى هذه المخالب المترددة
بين الشهيق والزفير ..؟
آه ..

كيف تنتهي العصيّ
وتطولُ المراوحُ بقاماتنا ..؟!
* * *

الدور لهذه الزهرة
أن تجلس على صدر رجلٍ ما
يلقي توقيعه على ورقة نايلون :
فترتدي الأبقارُ القبعات وتبدأ بالتدخين .

و يخرج السمك للتنزّه على الشاطئ
ويصفق الجلد المدبوغ بالسياط
هكذا يتأول الحزن والفرح
هكذا تتأول السيوف المثلمة ،
عندما تلاحق الحليب والأمهات .
هكذا تتأول الشرابين أمام الكهرباء
والتكنولوجيا التي تجرش الأسنان .
أيها النهر ،
كيف قابلتني بشفتيك المفتوحتين
وانتصابهم عليك ..؟
يا صديقي
إجلس الآن هادئاً كقطعة ، أو كجزء
راعياً الغبار فوق أصابعك
خارجاً عن تفاصيل هذا الخطّ المستقيم
المعلّق بين صمته وشفتيك
الرابط بين شفتي جرح
العاجل بين التهديد والإعتراف
أيتها العافية ،
يا ذات الطعم الكريه وشكل الإعدام .
وهو كذلك :
خندقٌ لمناقير أربعة
أغلقها النوم .

1979-1 -7

ما أفرَحْتَنِي أغنيةُ البهلوان
لكنني سأرددها أمامكم :
أنتم الذين استيقظتم مبكرين مثلي
وتهيأتُم لحفلةِ المساء .
استمعنا إليه يغني فوق الحبل .
وعلى ظهر الحصان الجامح .
استمعنا إليها آتيةً كقبضةٍ مُسدّدة
أو كأسنانِ مصرّة .
لم تكن مثل المراثي القديمة ،
لكنها تلبس خنجر القيصر ،
وتجلس بين خطب المهزومين ...
هكذا وجدته واثقاً بالحبال المتوترة ،
والخيول المؤدّبة .
هكذا فتحتُ عينيّ على هيأته المتماسكه
على ارتخاءِ عضلاتنا .
كدتُ أجد أغنيته على فمي
لكنه قفز ، فاهتزّ لساني
وهمدت بين يديّ الكلمة .

* * *

أمسنا البعيد ، لم يكن غير يومنا الماضي
هكذا تأخرت أغنيته هذا المساء
انتظرتم مثلي ، كي تروا أغنيته المهددة
بالخنجر والنمر المعرّض للنسيان ...

* * *

أخجلنا المسرحُ الذي بقي مُظلماً ...
والبهلوان الذي أدار كرسيه ، وجلس صاغياً
لأغنيته ، نرددها مجتمعين
في القاعة التي بقيت مضاءة ..!

الخارطة

هذا اليوم أصبح في غرفتي منضدة وكروسي
أمس اشتريت "السيكوتين" والمقصّ .
يا أصدقائي أحدثكم على ورقة :
لها حدود المقصّ والسيكوتين
وعلى طاولتي خمس بطاقات بريدية
ليافا والقدس وحيفا والناصره وبيت لحم
أيضاً ، ألعب في هذا الفراغ
مع الغرفة الباردة والشاي الأسود
بيني والبطاقات الخمس احتمالات هذه الوجوه
احتمالاتكم جميعاً واحداً واحداً
الضائع والمعروف
المخفتي والذي وضع طريقته أمام رقبته العاربه
دون أن أنسى أحد
-حتى أنني تذكرت أسماء .
- أسماء كنت أجهل أنها لا تزال معي
ودهشتُ ، يا لكثرتكم معي
يا لكثرة هذا الدفاء حول طاولتي
وبعفوية نظرتُ لإبريق الشاي
الشاي الأسود
إنّه الشاي المُعدّ كما في العراق
كما في الصباح
كما في الظهر والعشاء ..!
لأريكمُ الآن طريقتي في اللهو
ومتعة الأشكال التي تتناثر بين فكّي مقصّي

ليافا والقدس وحيفا والناصره وبيت لحم
وهذا الشيء الذي بدأ ينسجم بين ألوان
البطاقات الخمس على الخارطة
التي تنقصها محافظات أخرى
تنقصها بطاقات أخرى لمدن محتلة
يكمل بها لهوي
وتستقر وحدتي
على خارطة هذا العراق
المتبّت بالسيكوتين على طاولتي الفارغة

القفل

أنتَ الأقوى مني بالسيف , وبالعقل الحاسب أنفاسي
أنتَ الأقوى بالآلات الأتومية . عندي شيء مني في غرفة
نومي ، والأشياء الأخرى تعرفها من لحظة ما أفتح عيني
وأرى ، حتى لحظة ما أغمض عيني وتراني .

مکاشفات

أنا الأجنبيّ الجميل ...
أنا الأجنبيّ وهذا لساني...
الذي يشتهي،
ولا يستحي
فيطول !

أنا الأجنبيّ تحيّرتُ بين قميصي وهذا الظلام
الخفيف

تطلّون منه عليّ فلا تجدوني معه
تحيّرتُ بين قميصي وجلدي الضعيف
تطلّون منه عليّ فتسحركم ضجّة الأقمعة
* * *

أنا الأجنبيّ تعثّرتُ بالحاضرين وقمتُ إلى المائدة
على قدمٍ واحدة
وكان الكلامُ النظيفُ يههُ
ويغسل كلّ الصحون
تمنيّتُ أن أعترض
ولكنني

تذكّرتُ أنني أتيتُ بدون فمي ،
وأنّي تركتُ لساني الطويل
مع الحبر ... في قلّمي
أنا الأجنبيّ تمنيتُ أن أعترض
ولكنني ما وجدتُ الكلام.
تذكّرتُ صوتي يوّدّعني -
تري كيف لي أن أقول
وأن أعتدل

على مقعدي وهو بين الكراسي يميل ..؟
أنا الأجنبيّ

تعثّرتُ حتى انفضحتُ وضاق المكان
وكانوا يرصّونني للشموع وللعطر والهفوات
التي في شهيق السجائر - أسمعها - وزفير الدخان
فأمسح وجهي بكُمّ قميصي

وأدنو من المائدة
ثرى أين أخفي البطاقة حتى أضيّع إسمي
وأين أُعيرُ هذا القميص الذي رقتته النخيل
تخيلتُ أنني تعرّيتُ وسطَ السكاكين
أنا مثلها قابلتني الوجوه بألقابها
عاريّاً في الخروج
أنا مثلها قابلتني الوجوه بأسمائها
عاريّاً في الدخول ..!

* * *

أنا الأجنبيُّ طويثُ الكتاب
دخلتُ الحقيقةَ منتظراً أن يجيء القطار
أنا الأجنبيُّ
معي لقبني
ولستُ وحيداً ولكنني - في البقية - وحدي

* * *

أنا الأجنبيُّ
عرفتُ حدودي
فرتبتُ لي وطناً من ورق
- إنّه علبَةٌ للسجائر -
وحين يباغتني في المقاهي القلق
ويتبعني مثل عود الثقاب
ألمُ متاعي وأشعلُ سيجارتي
ثمّ أمضي
خفيفاً ،

بما يحترق ..!

* * *

أنا الأجنبيُّ الجميل
وقفْتُ مع الواقفين
تزامتُ ، لكنني في المكان القليل
أميل
لتعبر قبلي الحقائق
ويعبر قبلي المكان
ويعبر قبلي الزمان

تعلمتُ أن أنتظر
وأصنع لي وطناً في جواز السفر .

الحصان

أيها أمس
كن طيباً ، فالحصان
وقعت عنقه واستكان
كأنت الشمس
تضرب في الطين
والعين
والرمل في الطين
والعين
والرمل فوق اللسان .
* * *

منذ زمان
كأنت الأرض لا تنتهي
تحت رجل الحصان
كأنت الريح لا تهدي
لصهيل الحصان
كان ظلّ الحصان على الرمل
سقفاً لأهل المكان
* * *

أيها أمس
كن طيباً ، فالزجاج تكسر :
منّ ينحني
كي يلمّ الحصان .. ؟ .

هذا زماني وأعرفه

مرة من هنا

حبره

مرة من هناك

جرى ريقه

فأنكر حوصلتي

ومعّط أسنانه بالسواك

* * *

كلنا يشتهي أن يكون

وليكن ما يكون

أتاني زماني وحرّضني

فشطبّث على أمسنا

ومحوث الكتاب القديم

...ولكنّه قبل أن ألتفت :

بصّني

وأخرجني من لساني

وكبّلني بأكفّ الجنود .

زماني هذا وأعرفه

ويعرفني :

يحاضنني في القيام

ويرفسني في القعود .

أيها الصمت
يا سيدي في الكلام
انني أغلق بابي عن الريح . كي أستريح
وأنفخ فوق الشموع
وأسمع كلّ الطبول
أيها الصمت
يا سيدي في الكلام
تحملتني في الكثير
فهل ضقت بي في القليل

سيدي الخوف

نعم ، سيدي الخوف :
رأيتُ دموعَ التماسيح فوق الطحين
تحسستُ أنيابها في زحام العجين
نعم ،
جاسني برُدّها فاستعدتُ بها مرتين
نعم ،
كلما أيقظتني الشكوكُ احتميتُ
بأصدافها تائباً ،
فتمسح فوق لساني وعقلي لأغفو
وتنزلَ عن جسدي المستكين
سكاكينُ شكّي اللعين .

* * *

نعم سيدي
دخلنا مع الداخلين
وفرّقنا الحرسُ المستقيمون مثل العرين
على طاعتين
هنا طاعةٌ في الشمال
هنا طاعةٌ في اليمين

* * *

نعم سيدي الخوف : لي صاحبُ
ثم أنكرته فافترقنا ، وأذكره كلما حكّ جلدي حديد
ووشّت ببابي في الفجر ريحٌ .. ومرّ عويل
نعم ، إنها زحمةُ القبر تجلسُ بيني وبين لساني فأردمه
وتجلسُ بيني وبين عيوني فأخصفها

وتجلس بيني وسمعي فأخصمه ،
وأعصرُ ذاكرتي ، ثم أنشرُها فوق حبل الغسيل ..
نعم ، كان لي صاحبٌ واحدٌ لم يخفُ ، فتفرق
ولم يجمع البحرُ منه سوى ملحه
والحديدِ الثقيلِ ..

* * *

نعم سيدي
مرةً قلتُ كلا ، فكاد لساني يضيع
وكاد فمي يمحي مثل اسمي
وعائلتي والكلاب التي نبحت
والطيور التي فزعت
والحليبِ القليل
وظفلي الرضيع
وباب الحديد الذي شدَّ ثوبي
فأخرني لحظتين
ولكنهم عالجه ، فأطلقني للتراب
الذي داسني كالجميع ..

* * *

نعم إنها حائطي
وهذي الثقوبُ تمرُّ إلى كل أهلي
لتأخذَ منهم هواءَ وطني .

* * *

نعم سيدي الخوف
رأيتُ التماسيحَ تُفرد أنيابها للسحاب فتغسلُها
والرياح فتعصرها ، والسماء فتنتشرها فوق كل البيوت .

فأحصيتُ كلَّ عظامي

وهيأتُ خامي

لكي لا أموت

* * *

نعم ، إنّه حائطي

وبابي على حفرتين

وهذي ضلوغُ العبارةِ

يجبُّرها الجبس

مرفوعةً كالجبين .

هكذا يقف الشاعر
مُتَكَبِّراً على قامته ، باسطاً كَفْيِهِ
وأنتِ التي ألفتِ خطوطه المتداخلة
وجاورته مثل صمته الكسول
لماذا تخيرتِ حبل شراعه الوحيد
و رسوتِ بزورقٍ من زجاج
على مناخ شاطئه المدجج بالحافات .
* * *

لكلّ هذه الأيام التي صنع قوتها البحر
نهدي قواربنا
* * *

وأنتِ تعلمين كم هي ثقيلةُ هذه الصفة المستهلكة
التي تملأ قلبي بالاحتمالات
كجسر بين طعنيتين !..
* * *

فليحمل الحجر كلّ هذه الأصداف الملونة
وليقبض يومي القادم على الهواء الثقيل
الذي خففته معارك الفصول والغايات .
* * *

هكذا يقف الشاعر بين طعنيتين
مُتَكَبِّراً على قامته المُسَنَّنة
باسطاً كَفْيِهِ فوق الدماء المحطّمة
وحيداً ، يقرأ شعره
ضارباً بقواه الخمس بين أرضه وأصدقائه
* * *

وقفْتُ فابتسمت لي الشيخوخة
فخجلتُ وتدافعتُ ..

(1)

من الدم
كلُّ هذه العظام المتحاربة
بين فكِّي كلب .
أيها الإنسان
ترقق بحطام شجرتي .
لقد أضرت الفؤوس بالهياكل التي صنعها لي الربيع
أيها الإنسان
ها أنذا ، مع مائدتي المزهرة
بين السكاكين والملاعق
أجلسُ كيفما تشتهي الكلاب .

(2)

ليس هناك غير هذا الكرسي
شخصاً ما ، إنحني ،
ثم لم يستطع التقدم على اثنتين فقط ..!

(3)

لكم أن تبدأوا المعصية ،
ولي أن أنهض بكامل عظامي .
لكم أن تبدأوا فخورين بأوسمة الطاعة .
وظلكم القصير تحت وجوهكم .
ولي الدهشة والفخر بالصباح الذي عرفته
أو الذي أنتظره .
لكم القرارات ،
ولي عافية الزهرة .

استيقظت الزهرة
على صدر العاشق، بثوب حدادها الأبيض
اعتدل العاشق
على الكرسي المائل
وقبل أن يقول , حاصروه بالكلام
قبل أن يخرج
أقاموا الحدود .

لماذا تضيق بهم غرفهم
عندما يكون العاشق موثقاً بينهم ؟
لماذا ترتعد في جيوبهم المفاتيح
عندما ينظر إليهم واحداً بعد آخر ؟
في أكفهم السياط ,
وعلى جلده الجروح ,
فلماذا يشكّون في ذلك ؟
لماذا يرتجفون ,
عندما يلمسون ثيابه المبللة ؟
لماذا يكون السقف بهذا الدنو
عندما يقف العاشق ،
وتكون الأرض بهذا العلو
عندما يجلس ؟

لماذا يصرخون مجتمعين
على صمته الوحيد ؟

يداً بيد

على هذه الحجارة الجارحة

ثم لم يتوقف غيرهما

هو وهي :

هي العجولة

وهو المتضارب

* * *

أينما نظرت

وكيفما نظرت إليهما

سأجد رائحة أنفاسهما على شجرة

مثل برعم

أو هما

بين خطوتين قصيرتين

وكيفما انطلقا

تقاطعت أصابعهما المتحمسة

ثم يتوقف الطريق

ويكف المارة عن الحركة

* * *

على ثوبها الجديد

مسحت عرق كفها

ثم أخذت كفها المبللة

فهكذا يتصرف اللسان ..!

* * *

لست الوحيد الذي تطلع إليهما

فها هي الشجرة المنتصبية

تفرد تماسك أيديهما المبللة

المرأة والرجل

هذان الكائنان ملء مدينتي الواسعة

أصغيت إليهما هذا الصباح

وعندما غادرت

نسيت تحيتي على المرأة

وما كان لدي العطر النادر

* * *

لأشياء أورثني الحزن كمثلك هذه المقاهي

وهذه الحوانيت

وكلّ تلك المقاعد التي ترك عليها الناس حرارتهم

وكلماتهم الخفيفة

لأشياء أورثني هذا العدا

مثل اليوم الذي يبدأ من آخره

وتجرّهُ الأشجار إلى خضرتها مثل عربة ...

غير أنني ، وعلى كتفي حقيبتني

وفي رأسي كامل البلدان

والقطارات المنطلقة

أتوقّف عَجولاً

بين المارة النشيطين

محدّقاً بالهواء الثقيل الذي يملأ عضلاتهم

والبحر العريض

الذي يأخذ زوارقهم للضفاف الحيّة

* * *

هكذا يبدأ يومي

بذرة توشك على الانفجار

أغنية الخط المستقيم

أخذتني أغنية الخط المستقيم
أنا الطالع مثل الرمح إلى حلبة الليل والنهار
هنا في الركن المقصي
حيث النسيان ينتفخ مثل القطن
يجلس الخط المستقيم ، ويطلق إلى الأبد
طفلته الأغنية

* * *

من بين الخطوط المتكاثرة
اخترت هذا الخط المستقيم
المباشر كالمطر والضوء
أول العلل
أول الاختلاف بين الصمت والبكاء
المتراكم بنفسه
المحدود كالحافة
المتواضع كالضيف
اخترته ، وأعرف أنّ النياشين
ليست على مدّ البصر أبدا .

* * *

أخذتني الأغنية على صهوة حزنها الأبيض
إلى النية المؤجلة في الوصول
الممنوعة بأحجار السور الشاهق
وحديد الشبايبك الضيقة
وهناك ، على الأرض الثقيلة بالخطوط الأخرى :
المائلة والمنكسرة والمتداخلة
والمتشابكة والمنحرفة والمتقاطعة
أسرح بصري
إلى حيث يصل الجميع
جميع الخطوط
لكل النياشين
إلا رمحي : الخط المستقيم

المطر الجميل

أخشى أن أسألك
وأخشى ألا تسأليني
بل ، ربما أميل ...
ولكن إلى أمام
لم أكن قبلك وحيداً
لكني ، لن أحتمل الوحدة بعدك

حبيبتي :

أخشى أن يروك على ملامحي
عندما أجوع ، أو حين أغضب
يبحثون عن السرّ في عيني
عندما تقلّ رائحتك بين تفاصيل أنفاسهم
وأنا ..؟ ...
لقد تهيأت بالبحر والخنادق والأشجار
ضدّ الظلّ .
هذا المنافق بين صحبتين : الضوء والظلام .

* * *

سيّدتني
حينما أبقاك المطر الجميل معي
نسج حول أبوابهم الأسلاك ...
أنا الرجل المتزن على حافة سيف
أميل ...
أميل حتى يسندني صوتك
حتى يسند شمسي ظلّك
سيّدتني : لك أنت
تحنّي التماثيل ...
دون أن تنكسر .

عندما احتملتُ
لم تحتلم الشجرة
غادرته منتصباً أمام انحناء هذه الشجرة :
شجرة السرو ذات السنتين .
وأنا ، هنا ، أنظر لرائحتي التي بقيت .
لرائحتي التي ربّما بقيت واقفة في منتصف السلم
تماماً مثل حبل الغسيل
وحركة يد الطفل على الجدران ..
أنا احتملت ..
ولكن خذلتني الشجرة !..

* * *

في ذلك اليوم الغائم
أو اليوم المشمس
في هذه الأيام ... المتعجّلة بيننا
يتحرّك هواء خفيف
على ظل ورقة يابسة
أو حشرة ميّنة
إنها الرائحة العادية في كلّ البيوت
وهو الليل العاديّ على كلّ الناس
يدخل إلى المطبخ ويلمّ عشاءنا البسيط
ويترك فوق سيجارتي لمعته الحمراء .
هكذا أيتها الشجرة خرجتُ مُتكئاً على حقيبتني
مُخفياً طريقي وجواز سفري
لا فرق .. أيتها الشجرة
بين العتبة والسريير
بين الظلّ والحشرة
بين البيت والحقيبة .

الكرسي البارد

اتّسع هذا اليوم بالهواء والشمس
بالشجرة التي زارتني من النافذة
بالعصافير التي مدّت مناقيرها إلى غرفتي
اتّسع هذا اليوم

يومي بكِ

بكِ أنتِ

* * *

خلفت على جدران غرفتي شكل حضورك
وارتميت كالكتاب
جاعلاً كل الأشياء الحيّة تقبل نحو أصابعي
كي ألمس دورة هوائك الحاضر
وامتداد عينيك الغائبتين

* * *

ثم أيقظني الكرسي البارد
على العصافير التي أفردها صمتي على الشجرة
على الشجرة التي أنصتت منذ عام لوقع حضورك
على النافذة التي دخلت مثلي ،
وأطفأت الضوء حتى تمرّ أنفاسك

* * *

هكذا يتّسع يومي
وأنت التي جلست ساهمة
هل حرّك يومي صورة الشجرة أمام ذاكرتك ..؟
هل تردّدت مثل العصافير
قبل الدخول إلى ضيق غرفتي ..؟

صرخة واحدة ضد الزجاج
ضد الصداً الثقيل
ضد الأموات المقفلين على الشموع والبخور
صرخة واحدة من أجل المجد :
مجد الحصان الخافر
والخيمة المكسورة فوق الظل
كلنا أكلنا الخبز البارد
وتدافعنا مثل الحجر إلى الوادي
فاصرخوا مع الذئب أيها القليلون
ادخلوا على الماء والضوء
وانصتوا إلى أنين الحشرة في فم الثعبان
* * *

هذه ليست طعنة

إنها شجرة

هذا ليس الخوف

إنه اسمي

* * *

أيها الرجل : واكتفيت
متعتي قطرة مطر ضالّة
على منقار طائر
هنا تبدأ الحكمة : أخفّ الأشياء
هي الأرض دائماً

أرضنا الحادّة
تروح وتجيء تحت أقدامنا العارية ،
تحت أحمالنا الثقيلة
أرضنا الحادّة الملونة برائحة أجسادنا ،
المفروقة بين أصابعنا وعيوننا
هي وحدها ، أيتها المرأة المتردّدة
تفتح لنا الأبواب التي نستحقها
* * *

أمس ، وليس مثل كل يوم
اتّسع بيتي لكل الأشياء الحيّة :
للورقة التي تمسّكت بغصنها
للخبز الأبيض ،
للطين على قامات الأطفال
للأمهات الثابتات
للأظافر المسنّنة تحضر الملاجئ للأشجار والعصافير
أمس كان مثلك أنتِ ، مثلكِ أنتِ
دقّ بابي
ورفع الغبار عن نافذتي
ورثّني أمامه على كرسيّ من قصب
وجلس أمامي
أبيض ، أبيض كالنهار !..

الحجر الذي رأى

(1)**

• إنه لفخر أن انادي بإسمك

يا إسمه
أنتَ الذي أبصرتَ أسرارَ الخفايا
أنتَ المقدمُ في الطبيعة .
أنتَ الذي في الخلفِ تحمي أرضَ بابل
أنتَ الحكيم
أنتَ الذي عبر المحيطَ إلى طلوعِ الشمس
أنتَ الذي غنى بذكرك أهلُ بابل
أنتَ المظفر
ثلثاك من روح الاله
وثلاثك الباقي بشَرِّ .

(2) *

• الدارُ التي ثارت ضد الملك
الفاؤُ تجعلها تستسلم للملك

وَضَعَ الملك
كرسيه ، فتكلم الحجرُ السعيد
مَنْ غيره
رَفَعْتُهُ بابلُ في الأعلي
جالساً ،
وَجَمَعْتُنَا واقفينَ مع الحديد ..؟
أخذَ الملك
بيديه فأسَ الربِّ فاعتدل البشر
مَنْ غيره
أَعْطَنُ بابلُ سمعنا وعيوننا
وهيأتنا أن نُطاوَع فأسَهُ فوقَ الحجر ..؟

قال الملك
الأرضُ لي . قلنا نعم
والبحرُ لي . قلنا نعم
وجميعكم قلنا نعم
فتبسّم العرشُ المجيدُ ومدَّ إصبعه علينا
فانحنينا ...
وحطّ فوق رؤوسنا طيرُ السماء
حتى يمرّ الموكبُ الملكي بين سجودنا .
بجلاله يأتي وينفخُ في أنوفِ عباده
نفسَ الحياة .
فالمجدُ للفأس التي كتبتُ وصيته علينا .
المجدُ لك
من أولك
ولآخر الطين المخمر في الفرات
أنت الملك .

(3)*

• حتى يبلغ غابة الأرز ويقتل
خمبابا المارد ويمحو من على
الأرض كلَّ شر تمقته ..

[يا صاحبي أمر الملك
جُنْدَه .

يا صاحبي ودمائنا عنده]

- :.....؟

- : ... لا تلهث . إني أخفي في الليلِ بياضَ عيوني
وأردُّ زَحيري بيدي . رأيتُ النارَ بعين
العفريتِ تطلُّ ، فلم أصرخ . لكني أخليتُ
الحفرةَ من ستِّ أكفٍ وثلاثةِ أذرع ... كان
وحيداً هذا الرأسُ الأقرع بين الجسدين . ونمّثُ
- ثلاثتنا- والليلَ فلم ألهتُ وبلعتُ دماي
وسكتُ .

- : ... !

- : لن يسمعني أحدٌ إلا الماءُ وهذي الأعضاء
الخرساء .

فلنصبرُ يوماً آخر بين الأخوة . هم أخوتنا والماءُ
الأحمرُ يغسلهم معنا ، لكننا ملمومون بكاملنا ... لا
تنظرُ إن كنتَ تخاف من الجثثِ المبقورةِ تطفو
كاملةً أو ناقصةً أو مشطورة .

- : ... !

- : لن يسمعني أحدٌ إلا الماءُ وهذي الأعضاء المفروزة
بين القصبِ الأخضرِ والقصبِ المحروق .

ولنصبرُ يوماً آخر نأكل من سمكِ الهور ونشرب
من ماء البردي . فقد ماتوا أمس أو أمس الأول ،
لم تتحلَّ العضلاتُ ليأكل منها الطيرُ أو السمكُ
الجائعُ ... صدّني لن نأكل من لحم الأخوة ، ولنصبرُ
يوماً آخر . إنَّ الجثثَ المنصوبةَ مثل العلم الأزرقِ
بالخضرةِ والأذرعِ والأحشاء السوداء ستُرعبُ
خمبابا العفريت وتطرده عنا ...

.... ماذا ؟ .. إنني أسمعُ حيّاً ... يفعلها في .. الماءِ ..
فلا تلهثُ وتريثُ !
هل تعرفه ..؟

- : ...

- : أحدٌ من قادتنا يقلبُ خوذته في الماءِ ويدفعها

بالرمح المكسور فتغطسُ !

هل قلتُ كلاماً يجعله يدفعني مثل الخوذةِ

أغطسُ والرمحُ بظهري ..؟

- : ...

- : قلتُ - وأنتَ الشاهدُ ، إنَّ الجثثَ الزرقاء تجيفُ

فتطرد خمبابا الماردَ عنا خسرانَ ، فبابلُ يحفظها

ربُّ الأربابِ ويحميها ملكٌ من بين يديه تقومُ

الأفعال فيحملها الإنسان ...

* (4)

• على ضربات الطبل..
تستيقظ رعيته

نحنُ الجميع
بجميع طاعتنا إليك وما نقدُ ونستطيع
نمشي برمحك والعلم .
في غابة الأرز العميقة
حتى يفرّ الليلُ عن ماء السمك
وهواء اجنحة الطيور
ويحتمي عنق القصب
الحربُ حرب
والماءُ دم .

يا أهل بابل أعلنوا خسران خمبابا
وغنّوا باسمه الملك المقدم .
شدّوا الجنائن بالسماء وعلّقوا الغيم الثقيل
على سواقيها وبتّوا الماء في أعنابها .
البابُ لك

فادخلُ على الحجر المرقش كلّه تجدِ البشر
وادخلُ على البشر الرعية كلّهم تجدِ الحجر
بشراً ببابك ينتهون ويبدأ الحجر الحجر
فأسُّ لصوتك في الحجر
فأسُّ لصمتك في الحجر
تصغي لاسمك في لسانها – هكذا –
وتجيء كلّ الأرض طائعةً ...
لبابل

* (5)

كان يخبزُ مع الخبازين
. ويعدُّ
بيديه النظيفتين مائدة
القرابين

- :

: - ولنصبر سنةً أخرى . واحفظ رأسك من سوط
الشمس وظهرك من سنّ الحجر القاطع يأكل لحمك
وانزل مثل الكلب ولا تصعد قبل الكلب . جنائز
بابل نرفعها لإله الشمس ونصنع منها كرسيًا
لمقام الملك السامي . إصبر سنةً أخرى فلعل
إله الشمس يحنُّ على ضعف عباد الأرض ببابل
يدنو للفلك الأول حتى تُدرك في السنة
الأخرى قدميه ونبني هيكله ونصلي جمداً للملك
الفردي يحطُّ مسلته في الركن ويعلن فينا كلَّ
شرائع الحقّة ، ثم نقوم لننزل كي يبقى في
القاعة وحده والعرش ومجد الاسم .

(6)*

لقد أصبح صخبُ البشر شديداً عليّ
وقد حرمني صخبهم من النوم

ذهب الملك
و (بقا) * علينا عرشه ظلاً فتفرشه ونسجد
جاء الملك
وبنى علينا ظلّه باباً فدخله ونسجد
غاب الملك
وبقت علينا فأسسه ثملي فتكتب اسمه
في شربنا وطعامنا
وجهاتنا الست القليلة مرتين إلى اللحد
حضر الملك
قمنا ، فلم تُطق الوقوف عظامنا
وتساندت أجسادنا ضرساً يعضُّ على ضرس
وتداخلت أضلاعنا حتى الجدار
لكننا حجر تفتت وانسحقنا كلنا
في لحظتين من الغبار
غضب الملك
لاشيء يعصمنا فمتنا طائعين

وتحلّت أرواحنا فأعادها نملُ الخليفة للفرات
والآن يقدرُ أن ينام
فالصمتُ يحرسُ حلمه
والليل يحرس صمته
والربُّ يحرس ليله
والفأس تحرس ربه

* (7)

سارت جيوش الأحميني الأول ، وفي
عام
539 ق.م دخلت بابل دون مقاومة

:- ...!؟

:- إحفرْ وادفنْ رمحك في الأرضِ وثوبَ الحرب
إسكنْ حتى تعبرك الخيلُ وجنْدُ الأحميني الأول
واصبرْ عمراً آخر إنَّ الصبر جميل والشهداء جميلون .
فكلُّ الحجر المنحوت سيبقى في الأسوار وفي الأبراج
سليماً والأبواب الفخمة والقاعات الرحبة والمعبد
والعرش بأعلى الزقورة والهيكل والأعمدة المنصوبة
والساحات وقنطرة القصر ...
وتبقى ألواح الطين تمجد اسم الملك الأعظم في الأرض
وختمٌ أصابنا والملح .

** (8)

المنشد لا ينتحب ، وفي أطراف
المدينة لا ينطق بالرثاء .

إغفر لي
يا مَنْ أكثرت الاصطبلات
وأكثرت الأبقار
وجعلت الأغنام ببابل لا تُحصى
اغفر لي

يا مَنْ مَكَّنْتَ النعْجَةَ أَنْ تَلِدَ التَّوَامَ بَعْدَ التَّوَامِ
وَفَاقَ الْبِغْلَ حَمَارُكَ فِي حَمْلِ الْأَثْقَالِ
اغفر لي
يا مَنْ لَيْسَ لثُورِكَ فِي النَّيْرِ مِثِيلُ
اغفر لي .

*المقاطع داخل إطار مأخوذة من نصوص بابلية
** المقطعان 1 ، 8 مأخوذان بتصريف بسيط من قصائد بابلية .
*** الفعل (بقا) من بقي ، استخدام عند طيء

الفهرست

الصفحة	اسم القصيدة
4	تقديم: الشعر بين الهموم اليومية وخاطة الروح -- مجيد الراضي
9	اللون الصامت
11	تنويعات على لحن الحرب
16	ترحيل ... الى الأطفال والحجارة
20	مداهمة
20	رحيل
20	أبيها القطار ياطوني
21	الرحيل
21	قصيدة
22	الأموي
24	المألوف(1)
24	المألوف(2)
25	الجنة
26	غرفة خارج الوطن
27	النزهة
28	فراغ
29	زهرة المواطن
31	الجنابة
33	ام العصافير
35	دائما
35	كتاب عباس بن فرناس
38	كتاب أبي العلاء المعري
36	كتاب ابن رشد
36	كتابي
37	A
37	B
38	C
39	D
41	E
42	F
43	G
44	هو
46	أرق
47	المقايضة

49	كورال
50	الخارطة
50	الفقل
52	مكاشفات
53	الاجنبي الجميل
55	الحصان
56	سيدي الزمان
57	سيدي الصمت
58	سيدي الخوف
61	شيخوخة
62	شجرة
63	البحث عن الاستقامة
64	يدا بيد
65	المرأة والرجل
66	اغنية الخط المستقيم
67	المطر الجميل
68	سفر
69	الكرسي البارد
70	الصرخة
71	غبار
72	الحجر الذي رأى

مكاشفات ... ما بعد الرحيل

حين وُضعتُ أمام مهمة اختيار مجموعة من أشعار الراحل مصطفى عبد الله لتطبع في كتاب شعرت بشيء من التردد في داخلي . فالمهمة صعبة من وجوه عديدة ، أولها ، إنني لا أريد أن أظلم الشاعر ، فكل اختيار هو تعبير عن ذوق محدد وثقافة معينة وموقف متميز من الأدب عامة والشعر خاصة . ويزداد الأمر حرجاً أن الشاعر لم تطبع له مجاميع شعرية سابقاً ، ولم يأخذ حقه من النشر كاملاً ، ولم يطلع جمهور القراء الواسع على فنه .

غير أن ما جعلني أخاطر فأمضي في طريقي متجاوزاً العقبات أن الاختيار مهما كان غير وافي ، أو بكلمة أخرى ، غير معبر تعبيراً كاملاً عن هوية الشاعر وفنه ، فإنه يبقى جزءاً من نتاج الشاعر لا يمكن نكرانه ، والمعرفة بهذا الجزء أفضل من السكوت عليه .